



المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

اجتماع
خبراء أدب الخيال العلمي
في الوطن العربي

(تونس، 6-8/4/2009)

العطاء العربي لأدب الخيال العلمي

الأستاذ نهاد شريف

العطاء العربي لأدب الخيال العلمي

أدب الخيال العلمي هو الأدب الذي يتناول الأفكار والتصورات العلمية الحاضرة والمستقبلية، ومتابعة الجهود الجادة التي قام بها الكائن البشري منذ القدم، منذ أول ظهوره بصدق وتقانٍ من أجل سلامته وبقاء نسله ورسوخ قدميه تثبيتها لتفوق عنصره على عناصر بيئته فوق سطح كوكب الأرض. ويناقد أدب الخيال العلمي كل ما يمكن أن يفعله التفكير العلمي في تقدم البشرية في مجالات الطب والكيمياء والتشييد والصناعة والاتصالات وغيرها، إلى جانب اكتشافات ومخترعات لا حصر لها شملت كل كبيرة وصغيرة في حياة الإنسان واستخداماته والدفاع عنها، أقربها ما لحق الإلكترونيات من تطور مدهش عقب هبوط الإنسان على سطح القمر.

وأدب الخيال العلمي فن عربي أصيل بالرغم مما يقال من إنه مستلهم ومأخوذ عن الغرب، لكن في تقديري ومن خلال قراءاتي وأبحاثي ودراساتي اكتشفت العديد من الإسهامات للكتاب العرب، وهناك الكثير من الأفكار العلمية التي تم تسجيلها، والتي تتبأت بما يشبه أدب الخيال العلمي ومن أبرزها تجربة "عباس بن فرناس" في الطيران فكانت الطائفة. وقد أصدر البروفسور الأمريكي تيري سيزار، أستاذ الأدب المقارن في جامعة بنسلفانيا، كتاباً عن رواد أدب الخيال العلمي اعترف بفضل العرب في تأسيس هذا الحقل.

الكثير من كتّاب أدب الخيال العلمي يفاجئون جمهور القراء بأن لديهم العديد من الأفكار السابق كتابتها عن موضوع تيار علمي معين، فيقدمون كتباً سبق أن تحدثت عن هذا الموضوع وتناقش نتائجه. وأدب الخيال العلمي هو أدب ملتزم وإنساني، وخصوصاً لدى مجموعة معينة من رواده وكتّابه، وأنا واحد منهم، حيث نرفض تماماً عبث العلماء الذي قد يؤدي في النهاية إلى فناء البشرية مثل القنابل النووية والمواد الكيميائية التي تهدد حياة الكوكب الأرضي.

إن الجذور الأولى لأدب الخيال العلمي أو لو قلنا أنماطه المبكرة، إنما كانت نوعاً من الأساطير التي لم تكن مجرد خيالات وأوهام قصصية وإنما، اعتبرت ولا تزال، محاولات جادة من المجتمعات الإنسانية القديمة تفسر بها وتقيس عليها ظواهر الحياة والطبيعة والكون، أي أن الأسطورة كانت نمطاً من التفكير العلمي لدى الإنسان القديم، أدت إليه عوامل الرهبة من المجهول إلى جانب النزعة الملحة إلى المعرفة، والتي يمكن وصف تبلورها بعدئذ إلى صورة ما

يُكْتَب من أدب الخيال العلمي في أيامنا هذه بأنه تعبير عن أحلام البشرية ومخاوفها من التقدم العلمي، وما يقودنا إليه عبر طيّات المستقبل التي لم تعرف بعد !

وهكذا تحفل عصور الجاهلية، ثم صدر الإسلام، وما تتالي من عصور إسلامية، بكمّ أساطير كل حقبة منها، "كرسالة الغفران" للمعري، و"المقامات" للحريري، و"كليلة ودمنة"، ذات الأصل الهندي والرؤية العربية كإضافات ابن المقفع، وما لدينا من قصص عنزة، وأبو زيد الهلالي، وسيف بن ذي يزن، ثم قصة الأميرة ذات الهمة، والأهم أساطير "ألف ليلة وليلة"، وتتميز - جميعاً - بخيالها الفنتازي الجامح. وفي كتاب "ألف ليلة وليلة" عديد من الأمثلة لأحلام ومخاوف البشر في حكايات الجن والعفاريت، والحصان الطائر، والبساط السحري، وبلورة الرؤيا، وطاقيّة الإخفاء، ومصباح علاء الدين، وما يشتمل عليه ذلك من خوارق وتحدّ يؤدي للموت الظاهري، وثالثة تقلب الإنسان حيواناً... الخ.

وبعد مرحلة الجذور أو البدايات الأولى، نأتي إلى مرحلة المحاولات المبكرة لكتابة قصة خيال علمي، حيث نعرث على محاولات عربية رائدة سبقت مثيلاتها الغربية، فقد كتب الفيلسوف أبو نصر محمد الملقب بالفارابي في مؤلفه العظيم "آراء أهل المدينة الفاضلة"، والذي حوى فلسفة رفيعة صور بها دولة مثلى، تحقق السعادة والرفاهية لشعبها وتمحو الشرور بينهم، وقد سبق الفارابي بمؤلفه ما كتبه بعدئذ المحامي الإنجليزي سير توماس مور في (القرن 16 م) على نمط المدينة الفاضلة وسمّاه "يوتوبيا".

كذلك نجد في (القرن 12 م) الفيلسوف والطبيب والفلكي والأديب والمفكر الموسوعي أبو بكر محمد بن طفيل يؤلف في مراكش الأندلسية كتابه "رسالة حي بن يقظان"، وهي قصة فلسفية لحياة غلام أرضعته ظبية، وعاش وحيداً في جزيرة نائية، وظل يتنقل في مدارج المعرفة حتى اهتدى بذكائه وفطرته ودقة ملاحظته إلى الإيمان بالله خالق الخلق ومصدر الوجود. فسبق ابن طفيل ما كتبه غرييون على نمط مؤلفه بدءاً من (القرن 18 م)، مثل "روبنسون كروزو" لدانييل ديفو، "طرزان" لادجار رايس بوروز، و"رحلات جلفر" لسويفت.

الأدباء العرب الذين ولجوا هذا المجال وأهم إبداعاتهم؟

حقيقة هذا سؤال مهم، سأجيب عليه رغماً عما قد أضطر إليه من إطالة لكثرة تفرعاته، لكن لا بد أن أقسم إجابتي في البداية إلى قسمين: يختص أولهما بالمسيرة المصرية، بينما يشتمل القسم الثاني على ما هو حاصل في عموم الوطن العربي، مع توثيق القسمين بالتواريخ. ففي القسم الأول الخاص بالكُتاب المصريين تبدأ مسيرتهم من بداية الخمسينات، حيث يعكف توفيق الحكيم على تجربة عمليين من أدب الخيال العلمي وسط أعماله الأخرى، هما قصته "في سنة مليون" (1953م)، ثم مسرحيته "رحلة إلى الغد" (1958م) تلاه د. يوسف عز الدين عيسى بكتابة مجموعة تمثيلات إذاعية بدأ تقديمها من الإذاعة المصرية منذ عام 1957م.

وفي أعوام الستينات: كتب د. مصطفى محمود روايته "العنكبوت" (1964م) و"رجل تحت الصفر" (1967م)، كما كتب نهاد شريف روايته "قاهر الزمن" (1966م)، والتي تلتها ست روايات أخرى وثمانية مجموعات قصصية ومسرحيتين، إلى جانب عدد من الدراسات في أدب النوع.

وفي أعوام السبعينات: كتب سعد كاوي مجرباً مسرحيته "الميت الحي" (1973م) وقصتين ضمن مجموعته "الفجر يزور الحديقة" (1975م)، كما جرب كاتبنا محمد الحديدي في روايته "شخص آخر في المرأة" (1975م)، ثم جاءت كتابات رؤوف وصفي، فبدأ بمجموعته القصصية "غزاة من الفضاء" (1979م)، وتلتها ثلاث مجموعات قصصية للكبار وواحدة أخرى للصغار.

وفي أعوام الثمانينات والتسعينات: قدّم المرحوم إبراهيم أسعد محمد مجموعته "قصص أخرى" من أدب الخيال العلمي (1980م)، وحسين قذري روايته "هروب إلى الفضاء" (1981م)، وأحمد سويلم ديوائيه الشعريين "السفر والأوسمة" (1983م) و"شظايا" (1994م)، كما كتب صبري موسى روايته "السيد من حقل السبانخ" (1986م)، ثم قدم صلاح معاطي مجموعته القصصية "أنقذوا هذا الكوكب" (1986م) فمجموعته الثانية "العمر خمس دقائق" (1992م)، ثم مجموعة "بنت الحاوي" (1997م)، فمسرحية "عائلة السيد رقم 1" (1999م) ثم مجموعة "بدرية بالخلطة السرية" (2003م)، ومجموعة "عيون أينشتاين" (2006م) وأخيراً رواية "الكوكب الجنة" (2008م)...

وكتب عمر كامل روايته "ثقب في قاع النهر" (1987م)، ود.علي حسن روايته "السرطان وابتسامة سليمان" (1987م)، وإيهاب الأزهرى روايته "الكوكب الملعون" (1987م)، وعادل غنيم روايته "نادي من عظام فتاة" (1989م)، ومهندس صلاح عبد الغني روايته "شجرة العائلة الأفقية" (1990م)، وأميمة خفاجي روايتها "جريمة عالم" (1992م)، والسيد القماحي قصته "الميكروصوت" (1993م).

يضاف إلى من سبق ذكرهم: نحو ثمانية من كتاب أدب الخيال العلمي للأطفال هم: فتحي أمين، وعمر حلمي، والراحل صلاح طنطاوي، ومجدي صابر، ودكتور حسام العقاد، وهشام الصياد، وأشرف شفيوي.

أما القسم الثاني الخاص بالكتاب العربي، فيضم: محمد عزيز الحبابي - مغربي - وله رواية "إكسير الحياة" (1974م)، ود. طالب عمران - سوري - وكتب روايته "العابرون خلف الشمس" (1987م)، تلتها أربع روايات وأربع مجموعات قصصية وخمس مجموعات للأطفال، كما كتب عبد السلام البقالي - مغربي - رواية "الطوفان الأزرق" في (1979م) ومجموعتين قصصيتين للأطفال، كذلك قدم بشير التركي دراسة في أدب الخيال العلمي (1979م) وقاسم الخطاط - عراقي - رواية "البقعة الخضراء" (1984م) وأحمد أفزارن - مغربي - له مجموعة قصص "غداً" (1986م)، وموفق ويس محمود - عراقي - مجموعة قصص "إنها تنبض بالحياة" (1987م)، وعلي كريم كاظم - عراقي - مجموعة قصص "الكوكب الأخضر" (1987م)، وطيبة أحمد الإبراهيم - كويتية - رواية "الإنسان الباهت" (1992م) وروايتين سواها، وجمال عبد الملك الملقب بابن خلدون - سوداني - مجموعة قصص "الجواد الأسود" (1994م).

الثقافة هي نظرة عامة للوجود والحياة البشرية وهي واقع الإنسان الذي يعيشه، ولقد تأثر هذا الواقع وتطورت حياة البشر بكيفية مذهلة خلال النصف الأخير من هذا القرن بالذات في أعقاب الحرب العالمية الثانية، وكنتيجة للمتغيرات الضخمة والجزرية التي أحدثها العلم الحديث في حياتنا الاجتماعية، بمجالات الطب وهندسة التشييد والمواصلات والاتصالات، امتداداً إلى آخر القائمة حيث الفنون كالأدب والمسرح والموسيقى... الخ، فلا شك أن التأثير كان مباشراً وعميقاً على مفاهيمنا وسلوكنا ورد فعلنا، بل امتد ذلك إلى منطوق لغتنا وخطوط أزيائنا !! على أنني أضيف أنه إذا كانت للغرب ثقافته الجديدة الآخذة مسيرة التطور في جموح وخروج متصل عن المؤلف، كما أن للشرق عامة ثقافته الخاصة به والأقل جموحاً والأصلب على مقاومة التيارات غير المنضبطة، فإننا نحن المسلمين لنا في ثقافتنا الإسلامية خير ضابط وسط موجات المدّ العلمي وتطبيقاته التقنية التي يغلب على بعضها المبالغة والشطط أحياناً.

وقد تعلمنا من تجاربنا السابقة والمتعددة أن الأدب الحقيقي هو الذي يتعامل مع الواقع المعاش. ويبدع في نقل ملامح من حياة الناس وعلاقاتهم وصراعاتهم ويغوص في أعماق نفسياتهم باحثاً عن الجوهر، وتعلمنا أيضاً أن الأدب الملتمزم هو ذلك الذي يطمع في تغيير الواقع نحو الأفضل والأحسن من خلال المنظور المحلي المؤلف.